نباهة الحيوان

مسألة العقل في الحيوان الاعجم من المسائل المعضلة التي تناظر فيها العلماء وقلّبوها على وجوهٍ شتى ولم يجمعوا على حلّ مرضٍ لها . وغاية ما يتوخّاهُ طلّاب الحقائق الآن جمع الحوادث التي تظهر منها نباهة العجماوات والتثبّت فيها وتمحيصها من غوائل الاوهام حتّى تبوّب و يبنى عليها الحكم البات في هذه المسألة

ومن الحوادث الغريبة التي تدخل في هذا الباب ما رواهُ بعضهم حديثًا في جريدة العلم العام الاميركيّة قال ان بقرةً وعجلاً كانا في صيرة معًا ووُضع العلف امامها فاستأثرت به البقرة ومنعت العجل من الدنو منهُ مع انهُ ابنها . وحاول العجل ان يخطف ولو قليلاً من العلف فلم يفلح لان البقرة كانت تدفعهُ بقرنيها ولما رأت منهُ العناد والمكابرة نطحتهُ واذاقتهُ المرّ لم يذقهُ من قبلُ فخرج من الصيرة وانطلق الى المرعى وهو يخور خوارًا شديدًا كمن يطلب الانتقام وعلمت البقرة منهُ ذلك على ما ظهر لانها ابطلت الاكل وجعلت تصغي الى خوارهِ ولما ابعد عنها حتّى لم تعد تسمع صوتهُ عادت الى علفها اما هو فلم يبعد كثيرًا حتّى عاد ومعهُ عجل آخر اكبر منهُ واقوى وجعلا يخوران خوارًا شديدًا فوقفت البقرة حيرى ولما رأتهما مقبلين عليها هربت من وجههما فتبعاها كأنهما يطلبان الاخذ بالثار منها . اي ان العجل استاء من صنيع امهِ ولما رأى نفسهُ اضعف من ان يأخذ بثارهِ منها استنجد عليها بعجل آخر وفي علمت ذلك منهُ فهربت من وجههِ . ويبعد عن الظن ان العجل فعل ذلك بالغريزة لان هذه الحادثة نادرة الوقوع

و يروى عن الفرس نوادر اغرب من النادرة المتقدمة قال الكاتب المشار اليهِ آنفًا ان فرسًا كان يقيم في مرعاهُ الى ان يخيم الظلام فيخرج منهُ و يشب فوق اسوار الحقول المجاورة الى ان يصل الى حقل مزروع حنطة فيرعى منهُ كفافهُ الى الفجر الاول وحينئذٍ ينقلب راجعًا الى مرعاهُ واثبًا فوق الاسوار ودام على ذلك اعوامًا الى ان ظهر امرهُ . وفي ذلك من الدهاء ما لا يفوقهُ فيهِ الّا مهرة اللصوص . وقال انهُ كان عندهُ حجر عوراء وحدث انها أقلّت وكانت تصطدم بهرها كلما وقف على جانب عينها العوراء ولكنها لم تلبث طويلاً حتّى صارت تحاذر من ذلك فاذا لم ترَهُ بعينها السليمة بقيت واقفةً في مكانها وادارت رأسها رويدًا رويدًا الى ان تراهُ واذا لم ترَهُ ادارت جسمها بتأنٍّ لكي لا تصطدم بهِ . وشأنها في ذلك شأن اشد الامهات حنوًا

ونوادر الكلاب تفوق الاحصاء ومنها النادرة المشهورة وهي ان رجلاً ابله رمى طفلاً في الماء فانتشله كلبٌ قبل ان يغرق فعاد الابله ورماهُ في الماء فعاد الكلب وانتشله ثانية ولما رأى الكلب ان الابله لا ينثني عن عزمهِ انتشل الطفل ووضعهُ على اليابسة وعاد الى الابله ومنعهُ عن طرحهِ في الماء

وروى احد الثقات نادرة جرت على مرأى منهُ وهي ان ولدًا وقع في ترعة كبيرة وكان معهُ كلب فاسرع اليهِ ورفع رأسهُ فوق الماء وكأنهُ رأى من نفسهِ العجز عن السباحة بهِ الى البر فالتفت يمنةً ويسرةً ورأى خشبةً قائمة على الترعة فسار بالولد اليها وسند ذراعيهِ عليها وهو رافع راس الولد فوق الماء بفيهِ ولبث على هذه الحال الى ان اقبل الناس وانقذوهُ وانقذوا الولد من الغرق . ومعلوم ان الكلب قد يدرَّب على تخليص الولد من الماء ولكن ذلك لانجعلهُ يفتش على خشبة قائمة فيهِ يستند اليها كما فعل هذه النوبة

وروى الخطيب هنري بينشران كلبين قصدا عبور رافدة قائمة على ترعة في آن واحد من الجهتين المتقابلتين وكان احدهما كبيرًا والآخر صغيرًا فلما بلغا منتصفها وقفا لا يستطيعان التقدم ولا التأخر وخاف الصغير وربض في مكانهِ ولكنَّ الكبير وقف كمن يفكر في الامر ثم فرَّج يديهِ ورجليهِ واشار الى الصغير فمرَّ الصغير من بينهما وسار كلٌّ منهما في طريقهِ فرحًا

والنحل من اصغر الحشرات ولكن يبدو منهُ من ضروب التعقُّل والدهاء ما يقصر عنهُ اكبر الحيوانات ولا نلتفت الى كيفيَّة بنائهِ لخلايا لانهُ يفعل ذلك بغريزة مفكنة منهُ ولكن اذا عرضت حينئذٍ العوارض غير عادية قابلها بالفطنة وتصرَّف فيها تصرُّف العقلاء وهو مع ذلك لا يسلم من الخطإ ولا يقتصر على ما بهِ نفعهُ . ففي النحل العادي ملكة وهي الانثى وعدد من الذكور ونحو اربعين الفًا من الخناث وهي العمَّال والملكة امهنَّ كلهنَّ فالعمال تجمع الشمع والعسل وتبني الخلايا وتربي الصغار وتعمل الاعمال . والذكور تقيم على بساط الراحة آكلة شاربة فاذا رأت العمال ان الملكة قد شاخت وخفن انقطاع نسلها ربَّين من اخواتهنَّ ملكة اخرى تقوم مقامها ويفعلنَ ذلك بغريزة فيهنَّ على ما يقال ولكن لو كنَّ منقادات الى هذه الغريزة فقط غير مختارات في اعمالهنَّ لجرين عليها دائمًا ولم يخطئنَ ولكن الخطأ فاشٍ في اعمالهنَّ كما في اعمال البشر فقد يرسلنَ الدَّبر بعد الدبر في السنة الواحدة حتَّى يهلكنَ جوعًا لكثرة ولدهنَّ

وجملة القول ان نوادر هذه الحيوانات كثيرة واذا جمعت وتُحصت بُني عليها القول الفصل في مسألة تعقُّل الحيوان الاعجم والله اعلم